من أعظم الفتن التي واجهت الدعوة إلى اللَّه ومسيرة انتشار الإسلام هي حادثة الردة بعد وفاة النبي صلى اللَّه عليه وسلم.

هذه الحادثة العظيمة كانت فتنة لفقه الصحابة رضي اللَّه عنهم، ولصدق إيمانهم بالدين، ولتعاملهم مع قضايا الحياة بعد غياب الرسول الكريم صلى اللَّه عليه وسلم.

هذه الفتنة كأنها أعادت الدين إلى أيامه الأولى حيث الخوف وقلة الأمان وقلة الأتباع، فقد ارتدت العرب عن بكرة أبيها إلا مواطن من الجزيرة، وهي المدينة ومكة واليمن والطائف وجواثى في البحرين، وأما عموم الآعراب فقد ارتدوا وخرجوا من دين اللَّه أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً.

كان فقه الصديق وفرادته هو من حقق النصر وأعاد جموع الردة إلى الإسلام، وقضى على مواطن الفتنة وقادتها ، وذلك بقاعدة: أما إسلام حقيقي أو لا إسلام، وإما طاعة على منهج النبوة وإما حرب مجلية، لا يضر إن قضي فيها على المسلمين جميعاً ، حتى لو لعبت الكلاب بأرجل نساء النبي صلى اللَّه عليه وسلم في المدينة.

هذه الحادثة بغناها الفقهي العظيم، وبثرائها العملي الجهادي الذي جعل السهوب تمتلئ بالدماء والشهداء هو ما ورثته الأمة بعد ذلك، فأخذت منه قبسات الهدى في التعامل مع المثيلات لها في بعض صورها.

من هذه المثل العجيبة لهذا الجهاد الذي سمي باسم حروب الردة هو مقدار الدماء والشهداء الذي بذلت فيه.

يجمع المؤرخون على أن قتال بني حنيفة تحت راية مسيلمة الكذاب كان شديداً ومؤلماً ومكلفاً، ويكاد يتطابق مع قوله تعالى (قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون) وأن بني حنيفة هم المقصود بأولي البأس الشديد.

في هذه الملاحم الإيمانية ظهرت ثقة الصحابة بهذا الدين وبوجوب نصرته، دون التفات لأي مقصد آخر هو في عالم الغيب ، بل كان همهم إعادة صورة الجهاد كما فعلوه مع الحبيب المصطفى، فعند الطبراني أن ابنة ثابت بن قيس رضي اللَّه عنه قال: لما استنفر أبو بكر رضي اللَّه عنه المسلمين إلى قتال الردة: اليمامة ومسيلمة الكذاب،سار ثابت بن قيس رضي اللَّه عنه فيمن سار، فلما لقوا مسيلمة وبني حنيفة هزموا المسلمين ثلاث مرات،، فقال ثابت بن قيس وسالم مولى أبي حذيفة رضي اللَّه عنهما: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم،فجعلا لأنفسهما حفرة فدخلا فيها،فقاتلا حتى قتلا.

وفي هذه المعارك قتل الكثير من الصحابة، وخاصة في اقتحامهم لحديقة الكذاب،ولم تنكشف حتى قتل اللعين، وكان من أعظم الناس تقدمة وبلاء هم القراء أي الحفاظ لكتاب اللَّه تعالى، وقد قدر عدد قتلى المسلمين في هذه المعركة: 660 صحابياً جليلا، لكن قتل كما قدر من عدوهم حوالي عشرين ألفاً.

المهم في الباب أن هذه الظاهرة الكبرى التي صدعت القلوب والعقول، كانت كأنها مربوطة بعقدة واحدة، احتاجت هذه العقدة لصبر وثقة وتضحيات، ثم كأنها لم تكن.

هذا لا يعني أن المناطق الأخرى لم يحصل فيها جهاد بين الصحابة وبين المرتدين بل كانت مواجهات وحروب كذلك:

فبعض أهل اليمن قد ارتدوا وقاتلهم زياد بن لبيد البياضي، وقاتل العلاء الحضرمي بني ربيعة في البحرين، وهكذا، ولكن كل هذا الهم والظلام مضى كأنه لا شئ.

كان عمر خلافة الصديق ثلاث سنوات، فما أن انتهت فتنة الردة حتى جمع الجموع والبعوث للدعوة خارج الجزيرة، وكأن حادثة الردة مضيق طريق بعده فسحة من خير عظيم.

في هذه الفتنة ذهب صالحون وأخيار، وظهرت مناقب وصفات، وتجلت رحمة اللَّه وسنته القدرية في التعامل مع هذه الامة.

مع قتال مسيلمة انكشف المسلمون ثلاث مرات، من نظر إليها ظن أن نهاية هذا الدين قد اقتربت، ولكن ليد اللَّه الحانية قول وتدبير آخر.

ليس سهلاً أن تجد أمثال الصديق في اختياراته، ولذلك يقيم اللَّه من الأقدار الحانية لهذه الأمة لتمثل مواقف الصديق، فتدور الدوائر والمحن، وتتقلب الأمة على جمر الفتن، ثم يفسح لها من حيث لا تحتسب.

البعض منا تطيش حلومه وقت تشابك القضايا، ولا يدري ماذا يقول ولا ما يفعل، لكن اللَّه تعالى هو مدبر هذا الكون، وككل الأقدار يظن الناس أنها لن تنقضي، ولكنها تمضي وكأنها لم تكن.

ما نحتاجه دوماً الثقة باللَّه، وهذا أمر يتحقق بالتزامنا بشرعه، وبنظرنا إلى موقعنا من التاريخ، هل هو مقبل علينا أم مدبر.

لا تنظر إلى اللحظة التي تعيش بمعزل عن حالة العالم وحركته، فإنك إن فعلت خسرت ، وقدرت التقديرات الباطلة، فطلب النصر الكبير وقت الإدبار خطأ يؤدي إلى رفع السقوف التي لا يحصل منها شئ، وترك صيد لحظات الصعود بحجة الضعف مهلكة لك، تؤدي إلى استبدالك، فالتاريخ لا يعرف الفراغ.

ما أفهمه تماما أن أمتنا في لحظة صعود، وما تلك النكسات هنا وهناك إلا استثناءً في الطريق، ولكنها تسير قدماً لتحقيق مقاصد الشرع، ومشكلتها الكبرى، والتي يجب الإعتناء بها هو أننا لا ننتبه إلى مسارات أخرى هي في لحظة التولد لتلتقي مع تاريخ النصر الكبير.

إن ولادة الطفل الضعيف، والذي قدر اللَّه له أن يأكل حبة قمح تزرع في نصف العالم المقابل له، لا يمكن تصور دوام حياته وصعودها للاستواء إلا إذا تأملت قدر هذه الحبة وهي تسري من حال إلى حال، في تهاد عجيب حتى يضعها في فمه.

إن أي تخلف لمسار أحدهما يعني وفاة هذا الطفل.

كان الصديق يفهم، كما تعلم من سيده النبي صلى اللَّه عليه وسلم مكانه من التاريخ، ولولا هذا الفهم ما اتخذ هذه المواقف، فهي وإن بدت لنا استشهادية الخيار، لكنها عنده ليست كذلك، بل هي عنده التقاط النصر الإلهي في مكانه الصحيح.

هذا أمر يحتاج لمزيد بسط، واللَّه المستعان.

خير أمة

عندما يلتقي الجهاد مع قدر النصر

للشيخ الفاضل / أبو قتادة الفلسطيني

من إنتاج
مؤسسة خير أمة